

## سوسيولوجيا ماكس فيبر

تعد مساهمة ماكس فيبر السوسيولوجية من بين أهم المساهمات العلمية والنوعية في تاريخ علم الاجتماع والتي انتظمت حولها مختلف الدراسات السوسيولوجية، إما استثمارا لمفاهيمها وتصوراتها ومقاربتها المنهجية أو نقدا وتقويما لاختياراتها الفلسفية والعلمية. حيث تتمثل إسهامات ماكس فيبر، بالخصوص، في تقديمه للأساس الفلسفي والنظري للعلوم الاجتماعية الناشئة، مثلما نستشفه في دراساته المختلفة حول الاقتصاد والمجتمع والدين والمجتمعات القديمة والسياسة وغيرها.

وعلى خلاف السعي الحديث للاتجاه الوضعي نحو موضوعة الظاهرة الإنسانية تبعا لنموذجية المنهج التجريبي، الذي خطا بالعلم الطبيعي خطوات مهمة في سبيل اكتشاف العالم وتملكه اعتمادا على آليات الملاحظة والاستقراء والتكميم والتعميم، فإن اتجاه الفهم بمنظوره الفينومينولوجي ارتكز بالأساس على بيان خصوصية الظاهرة الإنسانية وطابعها الذاتي والكلي غير قابل للتجزئ، وإمكانية معرفتها علميا من الداخل، دون اللجوء إلى عملية الاسقاط التعسفي للمنهج التجريبي على موضوع مخالف تماما لأشياء الطبيعة.

على هذا النحو سيتم التمييز بين الظواهر عموما وبين الوعي الذاتي الذي يضطلع بإدراكها، حيث تنكشف الكيفية التي يتم بها إدراك العالم من قبل الذات، وفهم الأفعال الاجتماعية في سياقها التاريخي، عوضا عن البحث عن القوانين العامة الناظمة لها سيرا على نهج علوم الطبيعة.

على هذا النحو سيتم النظر للاتجاه الوضعي على أنه مرحلة ما قبل العلم، أو مرحلة وسطى بين الأفكار الاجتماعية وعلم الاجتماع. بما يقتضي تخطي عتبة استحداث مسافة معينة بين الذات العارفة وموضوع المعرفة، لما تفضي إليه من إلغاء مقومات الظاهرة الإنسانية وخصائها المميزة لها، الأخلاقية منها، أو العقلية والنفسية لحظة إحالة الموضوع المدروس على عالم الأشياء والجماد. لتخطي ذلك، سعى فيبر إلى إدراك الموضوع المدروس انطلاقا من الدلالات والمعاني التي تضيفها الذات المدروسة على أفعالها، والكشف عن شبكة العلاقات الناظمة لها، حيث العلاقة بين الذات الباحثة وموضوع المعرفة يقوم على الاتصال لا الانفصال. لذلك سيتم النظر لمنهج الفهم الفيبري على أنه تلك "السيرورة التي نعرف بواسطتها ما هو نفسي باطني اعتمادا على علامات حسية، تعتبر تجليا أو مظهرا لها"<sup>1</sup>.

<sup>1</sup> Dilthey, M. (1947). Le monde de l'esprit, T1. Paris, Aubier-Montagne, p 321.

وبهذا المعنى، يتصل إدراك الظواهر والأفعال والأحداث، بالنسبة لماكس فيبر، بالبداهة والوضوح، ما دام الفهم فعل معرفي مباشر، يتيح لنا إمكانية إدراك دلالة معيشية تعطى لنا كتجربة بديهية، ووضعية وجودية، تبعا لمقاصد الفاعلين الاجتماعيين، وتأويلاتهم المحددة لمختلف الأقوال والإشارات والأفعال. بما يجعل الفهم بدهاثة مباشرة ( أفهم العلاقة بين الغضب وتلقي الضربات أو اللكمات)، في حين أن "التفسير هو تبرير وتعليل لبروز ظاهرة اجتماعية بافتراض ظاهرة أخرى"<sup>2</sup>. على هذا النحو فنحن نفهم الحياة الإنسانية ونفسر الطبيعة.

ترتبا على ما سبق، ذهب ماكس فيبر إلى أن موضوع سوسيولوجيا الفهم يتمثل في دراسة الأفعال الإنسانية والاجتماعية التي يتم إدراكها بناء على موقف عقلي محدد، أساسه الفهم والتأويل بغرض الكشف عن المعاني والدلالات التي يضيفها الفاعلون الاجتماعيون على علاقاتهم، والأحداث والوقائع الناظمة لحياتهم. ثم العمل على تفسير الكيفية التي يؤثر بها التأويل والدلالة والمعنى على فعلهم.

يقصد بالفعل الاجتماعي ذلك السلوك الإنساني الذي يضيف عليه الفاعل معنى، أو الفعل الذي يوجهه اتجاه الأشخاص الآخرين. ومن ثم فهم الدوافع التي دفعت الأفراد للتصرف والفعل.

#### • النماذج المثالية للفعل

في سعيه لتحديد طبيعة الفعل الاجتماعي وتنميته، ارتأى ماكس فيبر استعمال النماذج المثالية، بوصفها أداة عقلية ومنهجية في التفكير السوسيولوجي. وبما أن عالم الاجتماع ملزم بفهم الظواهر الاجتماعية وتفسيرها، وبالنظر إلى تعدد أسبابها واختلافها، يدعو فيبر إلى تشييد نماذج مثالية لضبطها وتبسيط أبعادها الاجتماعية. وهي العملية العقلية والمنهجية التي لا تتأني إلا من خلال القيام بضبط المقومات الأساسية في الظاهرة الاجتماعية، في مقابل التخلص من المظاهر الزائدة وغير الناظمة لها. مما يتيح للباحث القدرة على الكشف عن منطق الأفعال الاجتماعية، أو عن حقيقة تاريخية معينة.

وقد خلص ماكس فيبر، من خلال دراساته السوسيولوجية إلى أربع محددات للفعل الاجتماعي، تحوي كلها العوامل الممكنة التي على أساسها يتصرف الفاعلون الاجتماعيون، إثنان منها لا تصدر عن تفكير، وإثنان مفكر فيهما من قبل الفاعلين.

- فعل تقليدي (عرفي)

<sup>2</sup> Monnerot, Jules. Les faits sociaux ne sont pas des choses. Paris, Gallimard, p 41-42

- فعل عاطفي ( انفعالي)
- فعل عقلاني بالقيمية الموجهة للفعل
- فعل عقلاني بالغاية المحددة للفعل.

### • الحياد الأكسيولوجي

وهو عبارة عن تصور منهجي خاص بلوره ماكس فيبر عن العلوم الاجتماعية، بوصفه التزاما أخلاقيا من قبل الباحث، يقتضي منه إقامة تمييز دقيق بين تحليله الأمبريقي للظواهر، وبين مقولاته الذاتية وتفضيلاته المعيارية المحكومة بالنعرات السياسية والثقافية والدينية.

فالحيد الأكسيولوجي بهذا المعنى، هو موقف أو وضعية منهجية وعقلية تتيح للباحث اكتساب الوعي إزاء قيمه وأحكامه وآرائه لحظة دراسته للظواهر الاجتماعية، بهدف التمييز بين الخطاب الأخلاقي والخطاب العلمي السوسيولوجي، بسبب انتماء الباحث للمجتمع ولفئات اجتماعية محددة، ولقيم ثقافية وعقدية ناظمة لها مما قد يعرض البحث السوسيولوجي، في إحدى مراحل، لتأثيرات إيديولوجية تحول دون تحقيق شرط الموضوعية، خصوصا عند دراسة بعض المواضيع المحددة كالجنس والدين والسياسة، حيث تتم إثارة الدلالة القيمية لها، وما يتصل بها من تحيز وميل مقارنة بالحياد المفترض في الباحث. والذي يقتضي منه التزاما أو حيادا قيما لحظة صياغة فروضه ومفاهيمه.

### • العقلنة ونزع النظرة السحرية عن العالم: (Rationalisation et désenchantement)

يقصد ماكس فيبر بنزع النظرة السحرية عن العالم قدرة الباحث السوسيولوجي على ضبط كل المظاهر اللاعقلانية المعيقة للتفكير العلمي حول الظواهر الاجتماعية، والناجمة عن شيوع الممارسة السحرية والتقليدية، والقائمة على تنميط ثقافي للحياة الاقتصادية والتقنية للأفراد.

تتمثل تلك السيرورة خصوصا في فقدان العالم لجاذبيته وبعده العجائبي<sup>3</sup>، لما توقف عن أن يكون ملغزا، على خلاف ما حاولت مختلف أنماط المعتقدات أن تعززه متوسلة الأساطير والحكايات والأقاويل الخرافية. مما ترتب عنه فقدان الإنسان لروحه العقدي، ولثقته في نفسه وفي قدره وأوهامه، وآماله أيضا.

والتي عوضها بعقلية الحساب والتنظيم المنهجي لمعارفه، والتخطيط والتوقع لأحواله الاجتماعية والسياسية والاقتصادية. حيث لم يعد إنسان العصر الحديث مثل البدائي الذي يكتفي بالتوسل لقواه الروحية والغيبية، وإنما صار يستند لقواه العلمية والتقنية، التي مكنته من تحويل المجتمع وتملك العالم. لهذا يتصل حديث فيبر عن نزع النظرة السحرية عن العالم بحديثه عن تنامي العقلنة في المجتمع، والتي يميز فيها بين العقلنة الموضوعية والعقلنة الشخصية أو الذاتية؛ تتمثل الأولى في بناء المعارف العلمية الموضوعية عن العالم الاجتماعي والطبيعي، وفي قدرة الباحث على تحليل دوافع وانحرافات الفاعل في اختياره لوسائله، ما يجعل من السوسيولوجيا تلك الأداة الأساسية للعقلنة الموضوعية. في حين تتصل الثانية بضرورة استدخال الذات للمعارف العقلية والعلمية، وبكيفية تعبئة الأفراد لأفعالهم استجابة مثلا لقيم الواجب أو الكرامة، أو إزاء قضية سياسية أو دينية لها أهمية بالغة بالنسبة له. وعلى هذا الأساس سعى ماكس فيبر إلى التمييز بين النشاط العقلي تبعا لغائيته وبين النشاط العقلي بناء على قيمته.

على هذا النحو يتخذ مفهوم *désenchantement* حسب جوليان فروند<sup>4</sup> معنى العقلنة بوصفه سيرورة موضوعية للمعرفة والفعل معا، ومعنى التثقيف (*intellectualisation*) بوصفه امتدادا للعقلنة كتمثل ذاتي، بغرض التخلص من كل التصورات السحرية لحظة السعي لفهم مختلف الوقائع الاجتماعية والمادية، وتخطي كل الأنماط الثقافية التقليدية (كالتطير والخرافة) الناظمة لحياة الناس في المجتمعات التقليدية، والارتكاز عوضا عنها على خطاب عقلائي كفيل بتملكها مفهوما ونظريا.

---

<sup>4</sup> Freund, J. (1981). Etudes sur Max Weber. Genève, Librairie DROZ S.A, P 84.